رأي جديد في رواية سهيل ادريس

"زحمة" ... في "الحي اللاتيني"

بقلم نجيب سرور

اذا اردنا ان نتتبع في قصة « الحي اللاتيني » خطأ نفسياً .. فعلى اي اساس يمكننا ان نختار هذا الخط ؟ وما مدى حريتنا في هذا الاختيار ؟ اننا بصدد قصة من النوع الذاتي .. وما دمنا سنتتبع فيها خطأ نفسياً فعلينا اولاً ان نسأل : أية شخصية من شخصيات الحي اللاتيني تعطينا هذا الخط النفسي المتصل ؟

انها لا يمكن ان تكون شخصية « جانين » .. لان المونولوج الداخلي غير متوفر فيما يتعلق بجانين .. والمونولوج الداخلي هو وحده الذي يسمح لنا بان نرسم او نتتبع خطاً . وقد يظن ان المذكرات – مذكرات جانين – نوع من المونولوج الداخلي، الا ان هناك اكثر من سبب يحول دون اعتبار مذكرات جانين كذلك ! فهي ليست من الكفاية والشمول بحيث يمكننا ان نتتبع فيها خطا. ليست كافية لانها تبدأ من النهاية – نهاية جانين – وليست شاملة لانها تصور جانين في فترة معينة ، في فترة تدحرجها نحو الهاوية الى الضياع ، بل اكثر من هذا ليست حقيقية ، بمعنى انها مذكرات مصنوعة ، مذكرات مخترعة ، ولهذا القول اهميته البالغة التي سيلمسها القارىء عما قليل . ان المذكرات بديعة ومؤثرة حين يكون الامر امر الكلام عن « فن » الكاتب .. اما حين يكون الكلام عن نسبة المذكرات الى التجربة والواقع ، أي عما اذا كانت جانين هي التي كتبت المذكرات حقاً ام ان المؤلف قد تصورها ، فالمذكرات مصنوعة متصورة ، فهي من حيث التجربة "والواقع شيء ، وهي شيء آخر من حيث التأثير الدراماتي .. انها هناك متعلقة « بصدق » الكاتب .. وهي هنا متعلقة «بفن» الكاتب ..

يحملنا على هذا الظن اكثر من شبهة واكثر من دليل :

الشبهة الاولى اننا نرى طوال القصة دقة الكاتب وحرصه على التحليل البطيء حين يكون الكلام عن تجربة عاناها البطل . اذ نراه هنا يسهب ويطنب فيحصي بكل دقة ويسجل كل جزئية ولا تفوته بادرة من بوادر الفكر والشعور الا امسك بها ، مما يتفق وكون الامر امر تجربة حية غنية . ونحن نرى من الطبيعي ان يرضي (هو) ضميره بالبحث عن جانين عند عودته من عطلته الى باريس ... ثم نتوقع ان يكون لقاؤهما تجربة حافلة زاخرة تدفع الكاتب الى الاطناب والابتكار والملاحظة والتحليل وتقتضي منه الدقة والبطء شأنه في سائر التجارب طوال القصة . ولكنا نرى العكس تماماً من ص ٢٨٢ الى ص ٢٨٥ ... فحين يلتقي (هو) بجانين نجد الامر امر تصور لا يتيح القدرة على التحليل العميق البطيء والتصوير الدقيق . لان التصور هنا لا يستند الى رصيد من الواقع النابض الحي في الشعور والفكر والسلوك. واذا جاز لنا ان نقول ان التاريخ وقائع مادية متراصة في الزمان فالقصة خطوط نفسية .. حياة نفسية ممتدة في الزمان. ونحن نرى في الصفحات سالفة الذكر سرد الوقائع يكاد يكون سرداً تاريخياً بالمعنى السابق، فنرى انتقالاً سريعاً مفاجئاً هو في الواقع هروب ، لان التصور – بعكس التجربة – فقير دائماً ، لا يمد الكاتب – اي كاتب – بما يحتاج اليه من رصيد، من حياة. فلا شيء يقفز بين رؤيتها – جانين – تطل من باب الكهف وبين استدارتها ببطء وخروجها . ولا بين هذا وبين دعوتها الى الجلوس في المقهى . فاذا جلسا لم يكن غير الصمت والاطراق ، وتجنبه النظر اليها وتجنبها النظر اليه . والواقع ان احتجاج الكاتب هنا بعجز الكلام عن التعبير ليس غير هروب من التورط في الاعتراف بعدم وجود شيء يقال او يكتب ... والتجربة وحدها هي التي تخلق هذا الشيء الذي يقال او يكتب .. ويبقى فراغ شاغر يحسه الكاتب فيحاول ان يهرب من جديد ، يحاول ان يملأه بشيء ، شيء قد يعطي تأثيراً دراماتياً ، ولكنه على اي حال اصغر من ان يملأ الفراغ ، هذا الفراغ الذي تملأه التجربة وحدها دون التصور والصنعة والاختراع . فما هذا الشيء الذي يحاول الكاتب ان يملأ به الفراغ دون جدوى ؟ هو انه « في اطراقه رأى قدميها.. كانت تنتعل حذاء مسكيناً !» وحين يرفع (هو) عينيه فتلتقيان بعينيها لا يرى الا زرقتهما ، ثم ليس هناك غير أنهما «مجهدتان»، ويحس الكاتب الضيق بهذا المأزق ، يحس بنفسه تائهة في هذا الفراغ الواسع الذي لا تملأه نظرة الى حذاء مسكين .. او عينين زرقاوين مجهدتين ، فيتساءل : ماذا افعل ؟ .. اذن فليدع « جانين » تنهض ليدخل على هذا الصمت الممل وهذا السكون الجامد شيئاً من النطق والحركة . وتنهض جانين، ويمد (هو) يده ليمسك بها فتقول : « ماذا تريد مني .. دعني اتابع طريقي ».. الواقع ان هذا السؤال – سؤال جانين جاء متأخراً .. فليس مكانه هنا بعد ان جلسا بالمقهى، وانما الطبيعي ان يكون مكانه هناك عندما لحق (هو) بجانين بعد خروجها من الكهف مباشرة وسار معها في الطريق قبل ان يدعوها الى المقهى .. فما الذي جاء بهذا السؤال الى هنا ؟ انه التصور الذي يعرض دائماً للوقوع في الخطأ .. ثم يسير الكاتب على اسلوب السرد التاريخي فيرص وقائع مادية جنباً الى جنب دون ان يربطها بآثارها من الحياة النفسية : فها يغادران المقهى ، ويلفهما الليل ، وتدلف به الى زقاق ضيق .. ثم ترقى به بناء متشقق الجدران .. ويتبعها دون ان يقول كلمة .. وتخرج من تحت وسادتها مذكراتها .. ويفتح دفتر المذكرات .. وهكذا حتى ص ٢٩٤ .

نحن نميل الى القول بان البطل اللبناني – في الواقع – لم يلتق بجانين بعد عودته الى باريس .. ومقتضى هذا القول تغلب عنصر التصور والاختراع والصنعة على عنصر التجربة في القسم الثالث من القصة .. ومعنى هذا ايضاً ان المذكرات مصنوعة ..

والشبهة الثانية هي إصرار جانين هذا الاصرار على مواصلة الكتابة وهي تعاني لفحات الجوع القائظ . فالمعقول ان تنتهي المذكرات يوم (٥ ايلول) على الاكثر . أما ان يفكر الجائع في أن يسجل جوعه في مذكرات فليس

« سيغضب هذا البحث كثيرين لانهم سيشعرون احياناً انهم مقصودون بالذات ببعض فقراته .. لا بطل القصة فحسب ..، ولكني اعلم ايضاً انه سيرضي كثيرين ... بل سيرضي هؤلاء الذين سيغضبون اذا استبعدوا مشاعرهم الخاصة . وتخلصوا من احكامهم العاطفية ووقفوا من القصة ومن البحث موقف « الآخر».. ولا بد ان يجدوا انفسهم راضين . ان الحقيقة بنت الصدق والشجاعة والموضوعية. فلتكن اشد مرارة من العلقم.. فهي اكثر حلاوة من الشهد ، ربما لانها من هذه الدرجة بالذات من المرارة . »

« ن. س. »

هذا بمعقول على الاطلاق . إنني اتكلم عن تجربة، والدكتور سهيل لم يعرف الجوع – كما يبدو – أما أنا فقد عرفته جيداً .. حين كنت أعيش على الماء القراح دون أمل في لقمة تسد الرمق في يومي أو غدي أو بعد غد. والشيء الطبيعي ألا يفكر الجائع إلا بمعدته .. والمعدة لا تحسن إملاء المذكرات فضلاً عن ان اليأس الذي كانت جانين قد انحدرت اليه حتى يوم (٥ أيلول) لم يكن ليسمح لها بأن تقيم وزناً لشيء ما ، لا للمذكرات ، ولا حتى لهذا البعيد . وقد دفع الدكتور سهيل دفعاً إلى تصور المذكرات ، وإلى تصور لقاء البطل بجانين بعد عودته إلى باريس ليمد القسم الثالث من القصة بنبع دراماتي . وقد نجح ، ولكن نجاحه هنا لا يمنعنا من أن نرد المذكرات إلى التصور لا الى التجربة وأن نقول إن القصة الواقعية انتهت يوم وصله وهو في بيروت ذلك الخطاب الذي قالت فيه: « سأواجه مصيري بشجاعة ...» وإذن فالتجربة الحية الغنية النابضة الدافقة التي يمكن لها وحدها أن تمدنا بالخط النفسي المنشود غير موجودة فيما يتعلق بجانين...

فأين نلتمس الخط النفسي الذي نريده ؟ أولى ألا نلتمسه في تلك الشخصيات العديدة التي لا تفسر وجودها هي بقدر ما تساعد على تفسير الـ(هو) اللبناني . إنها لا تقوم في القصة لذاتها بقدر ما تقوم لتحدد البطل اللبناني .. لا تقصد لذاتها بقدر ما تقصد لتعيين البطل اللبناني... إنها تماماً كتلك اللمسات المبعثرة التي تساعد على إظهار المضمون العام في لوحة ولكنها هي لا تكوّن مضموناً..

إننا اذن نلتمس الخط النفسي في شخصية البطل اللبناني لعدة اعتبارات :

أولاً – لأن المونولوج الداخلي متوفر في القصة بالنسبة له .. بل إن القصة بالنسبة للبطل ليست إلا ذلك المونولوج الداخلي المتصل بعد استبعاد الصفحات الوصفية وصفحات السرد التاريخي .

ثانياً – لأن الأمر بالنسبة للبطل امر تجارب يعانيها ويعمل فيها فكره وشعوره ويتحدد بكل اولئك سلوكه .

ثالثاً – لأنه ليس ثمة انفصال بين شخصية البطل وبين المؤلف.. فالمؤلف يفكر له .. ويشعر ويفسر ويبرر ويتصرف له . الكاتب قد تقمص شخصية البطل أو تقمص البطل شخصية الكاتب . وينطبق هنا تمام الانطباق تعريف (بيير هنري سيمون) لبطل الرواية بأنه « حالة من حالات المؤلف النفسية » .. فالقصة لا تفصل لنا بين المؤلف والبطل .. بين الخالق والمخلوق، هذا بينما نجد انفصالاً كلياً بين المؤلف وسائر الشخصيات الاخرى .. فهو يتركهم يفكرون ويشعرون ويتصرفون لأنفسهم .. وهو لهذا لم يدر لنا مونولوجاً واحداً في رأس شخصية من الشخصيات – ما عدا البطل – بما في ذلك جانين ... وقد سبق ان تكلمنا عن المذكرات التي كان يمكن أن يظن خطأ انها هذا المونولوج الداخلي.

رابعاً – لأن القصة قصة ذلك البطل ، لا قصة جانين ولا غير جانين..

وبعد .. فما المفتاح إلى شخصية بطل الحي اللاتيني ؟؟

نحن نبادر فنقول انه « النرجسية »، ونحن مطمئنون الى صحة كشفنا ، وصدق نظرتنا، ورصيدنا الضخم من الملاحظات والقرائن والشواهد والبراهين..

فما هي النرجسية ؟؟.. لا يعنينا من صور هذا الانحراف غير صورة واحدة : عندما يتحقق للأنا الاشباع في صورة علاقة طبيعية بين الرجل والمرأة .. يقول « فرويد » : « إن النرجسية هي الحالة الاصيلة التي قد تتمخض عنها محبة الموضوعات فيما بعد دون أن يترتب على ذلك بالضرورة إختفاء النرجسية أي عشق الذات » .. فقد يكون المرء نرجسياً ، ومع ذلك يحيا مع المرأة حياة جنسية طبيعية المظهر بحيث يبدو كما لو كان سوياً غير مصاب بشذوذ . وهنا يختفي الباعث الشاذ تحت غلاف الصورة الطبيعية.. وبمثابة الاعتراف يكون المونولوج الداخلي .. وهو الذى يبين لنا الشذوذ تحت المظهر الطبيعي . وللنرجسية في رأينا مفهومان .. أولهما الذاتية – الانانية – أي عشق للذات يبعث على الرغبة في تأكيدها وتقريرها وإبرازها .. أي تبلور الاهتمامات وتركزها على الانا ويكون هذا قبل البلوغ .. وهي بهذا المفهوم عامل مشترك بيننا جميعاً ، وإنما الاختلاف اختلاف في الدرجة فحسب بين فرد وفرد.. والمفهوم الثاني هو العشق الجنسي للذات ويكون من البلوغ .. يطلب « اللبيدو » الاشباع فيتجه إلى الأنا – الاشتهاء الذاتي – لأن الذاتية هنا تكون بالغة درجة من التركز عالية فتعطف « اللبيدو » على الانا ... أو تحول « اللبيدو » الى موضوع خارجي دون ان يفقد ارتباطه بالأنا في صورة علاقة طبيعية بين الرجل والمرأة . فالنرجسية – بمفهومها الجنسي – هي كما يقول « فرويد »: «التتمة الليبيدية للذاتية » .... تتخذ النرجسية بادىء ذي بدء صورة الذاتية قبل البلوغ ثم تكتسب العامل الجنسي من البلوغ فتسلك في الاشباع أكثر من اتجاه .. لا يهمنا هنا إلا اتجاه واحد هو صورة العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة .. فالذاتية كما يقول « فرويد » : « هي العنصر الثابت الواضح في حين أن النرجسية – بمفهومها الجنسي – هي العنصر المتغير» .. يجب ألا

« نرجس في الحي اللاتيني »

بريشة محي الدين محمد

نخجل من الاعتراف بأننا جميعاً نرجسيون بهذا المفهوم الذاتي للنرجسية . فالذاتية عامل مشترك بيننا جميعا.. والفرق بين الطبيعة والشذوذ ليس الذاتية على كل حال، بل الفرق في طريقة الاتباع – في اتجاه التبيدو – وفي درجة الشعور بالذات والاهتمام بها .. إنما يكون الشذوذ عند انحراف «التبيدو» عن الاتجاه الطبيعي السوي .. أو – في حالتنا – عند وجود الباعث الشاذ تحت الغلاف أو المظهر الطبيعي أو بمعنى آخر وراء الاتجاه الطبيعي .. فلنطمئن .. ثم ان وجود دلالة واحدة من دلالات النرجسية عند القارىء لا يعني مطلقاً أن القارىء مصاب بالنرجسية وإنما اجتماع الدلالات هو الذي يقطع بالشذوذ ..

وهكذا يكون الشعور بالذات – الذاتية – ضعيفاً او في درجة منخفضة عند الرجل العادي .. الرجل العملي الذي تغمره الحياة اليومية بفيض من المشاغل والمشاكل والمسئوليات فتصرفه الى حد ما عن التفكير في ذاته .. وكقاعدة عامة يكون الشعور بالذات عنيفاً في درجة الغليان عند غير العمليين .. وهؤلاء هم الفنانون .. ويضاف الى الفنانين هنا الفلاسفة الذاتيون من ذوي المزاج الفني ويعتبر «شوبنهور» نموذجاً بارزاً للفلاسفة الذاتيين ذوي المزاج الفني . فلماذا كان هؤلاء فقط الذين يشعرون شعوراً عميقاً بذواتهم ؟ لانهم وحدهم الذين يشعرون شعوراً عميقاً بالمصير .. ان فكرة الموت تلعب هنا دوراً خالداً ..

الرجل العملي – عامل ، تاجر ، رب عمل كبير او صغير ، موظف – غارق في لجة من الازدحام اليومي بالاعمال . فهو يعيش كل لحظة على انفراد.. وقد يمط البصر الى غد، ولكن في حدود الحساب العملي للربح والخسارة .. والى مدى لا يبعد كثيراً عن المجال العملي الذي يعيش فيه . انه لا يفكر بالمصير اللهم الا المصير الذي يهيء الآمال ، ذلك المصير الذي يقضي على الآمال ويضع حداً نهائياً أقصى للتأميل .

فماذا عن العلماء ؟ انهم في ذلك اشبه برجال الاعمال .. فالعالم لا يلقي النظر الى بعيد وانما يلاحظ الحاضر. اكثر من هذا ان الامر عند العالم امر ذات وموضوع .. توجد فيه الذات محض وسيلة لادراك الموضوع.. وحين يكتشف العالم حقيقة فانه لا يضمن الحقيقة شيئاً من ذاته.. وهو يعلم هذا.. يعلم انها كانت موجودة قبله وبدونه .. وستظل موجودة بعده وبدونه .. يعلم انه لم يخلق الحقيقة بل كشف عنها فقط . بل ان إعجاز الحقيقة التي تخرج كل يوم من جراب المجهول ليميل دائماً الى ان يزيد العالم شعوراً بالدونية ويرغمه على التواضع والاعتدال في تقديره لذاته واهتمامه بها..فالعالم يقيس ذاته بالنسبة الى هذا الوجود المعجز العظيم الرائع . وانه ليخرج عقب كل اكتشاف شاعراً بتفاهة وجوده الذاتي بالنسبة الى هذا الوجود الكبير .. شاعراً بانه متضمن في هذا الكون .. بأنه شيء من هذا الخضم العظيم..شيء ما.. شيء صغير.. لا كل شيء .. من هنا لا تروعه فكرة المصير.. ان الحال عكس ذلك تماماً بالنسبة للفنانين ولكل من له نصيب من المزاج الفني .. فهؤلاء لا يغرقون في ازدحام يومي بالاعمال، فامامهم وقت طويل يسمح لهم بالتأمل وبتداعي التفكير الى الذات .. فالى المصير. ثم ان العمل الفني يميل دائماً الى ان يؤكد الشعور بالذات ويثيره ويغذيه.. لماذا ؟ لان الفنان لا يكتشف فقط عن حقيقة بل يخلق هذه الحقيقة .. ثم هو يضمن عمله كثيراً من ذاته . ويشعر انه الخالق وان المخلوق لم يكن ليوجد بدونه .. انه يواجه عملاً من خلقه قال له «كن» فكان. انه يشعر بألوهيته .. يشعر عميقاً بانه كل شيء لانه يقيس ذاته بالنسبة الى العمل الفني المخلوق لا الى الوجود الرائع الكبير .. هنا تنفجر الثورة على الموت ؛ هنا يثور السؤال الخالد : « لماذا افنى انا الخالق ويبقى المخلوق ؟ » ويتخيل الفنان ما يمكنه ان يخلقه لو امتد به العمر الى ما لا نهاية .. انه يشعر بلانهائية قدراته وامكانياته وطاقاته..فلماذا لا تكون حياته بلانهاية .. لماذا؟ لماذا لا تمتد به الى الابد ؟ لماذا لم يكن خالداً ؟ انه الموت الذي يحول بينه وبين الاستمرار في الخلق والابداع .. انه الموت الذي يقطع عليه وجوده الخلاق .

اذن لقد صدق « هيبوقراط » حين قال : « الحياة قصيرة .. ولكن الفن طويل » .

وصدق « كلود برنارد » – بمعنى ما – حين قال: «الفن انا..والعلم نحن».

ففي أية طائفة من الطوائف الثلاث نضع بطل الحي اللاتيني ؟

في طائفة الفنانين طبعاً .. فهو شاعر .. ثم هو شاب يحضر للدكتوراه في الادب العربي ويفوز بها في نهاية القصة.. انه فنان ، ليس بالرجل العملي ولا بالرجل العلمي ..

وقد قصدنا بهذا الاستطراد ان نبين ان بطل الحي اللاتيني على نصيب كبير من المزاج الفني .. فهو بالتالي على نصيب كبير من الذاتية .. واذن فهو قابل لان يصاب بالنرجسية . اما هل هو مصاب بالنرجسية ام لا ، فهذا ما يحاول هذا البحث ان يستخلصه من القصة .

غالباً ما يكون ابن الارملة والمطلقة نرجسياً .. وحين يموت الاب او يهجر الام يكون من هذه ان تتجه الى الابن الصغير بكل عواطفها .. بكل ما ينطوي عليه حنانها من تعطش للحب وجوع للحنو . وتتركز اهتمامات الام في الابن الصغير فيكون لها رجلاً صغيراً يحل محل الاب الهاجر او المتوفي ويكون الافراط في الاهتمام بالصغير ويشب هذا فيجد نفسه مرموقاً بالعناية محوطاً بالتدليل .. مصباً للعطف والحنان . فيشعر بذاته .. ثم يتعلق بهذه الذات حباً وتولهاً واهتماماً . وحين يفرض عليه ان يخرج من هذا المحيط الصغير – البيت الذي هو فيه كل شيء .. الى المحيط الكبير – العالم والناس – يكون قد توقع ان يجد من المجتمع – من المرأة على الخصوص – ما كان يجد من امه .. ثم تكون الصدمة فيكون التصدع.. هذا بالضبط هو حقيقة الامر في بطلنا اللبناني .. انها ام فقدت زوجها – فلم يذكره بطلنا على طول القصة بكلمة واحدة – واغفاله ذكر الاب هذا الاغفال دليل على انتفاء اثر الاب في حياة الابن مما لا يفسره غير موت الاب قبل ان يولد البطل او بعد ان ولد بقليل . ثم لم يكن من المعقول ان تتجه الأم إلى احد ابنائها الكبار لإشباع رغباتها الجائعة إلى الرجل ولملء الفراغ الذي تركه الزوج من حياتها لأن لكل من الابنين الكبيرين مشاغله في التجارة كما تقول القصة.. وربما مسئولياته العائلية أيضاً التي تصرفه عن أمه .. أما هذا الصغير فهو الذي سيظل مع الأم إلى ان يتزوج .. وإلى ان يتزوج سيكون لها الرجل الذي تحرص عليه والذي يعوضها بطريقة ما عن الزوج . وحين يقدر له ان يكبر ويحب ستشعر الام بغير قليل من الغيرة والحسد والحقد . وهذا ما أدركته أخت بطلنا حين طلبت إليه ألا يري صورته مع جانين لامه .. لأنها « تغار احياناً ».. ولم يكن سبب موقف الأم من علاقة البطل بجانين هو الشرف أو التقاليد أو العرف الشرقي فحسب .. فالواقع ان كل أولئك مجرد قناع لغيرة الأم من جانين .. لحقدها .. لحسدها .. لأنانيتها .. إن الأم تريده لنفسها . وليس ينفي هذا عنها كونها عملت جاهدة على توجيه ابنها إلى « ناهدة » . فالأم وإن كانت في باطنها تود لو بقي ابنها لها وحدها فانها تحس في الوقت نفسه

باستحالة هذا . . تحس أنه لا بد سيتجه إلى غيرها . . فتدفعها هذه الاستحالة إلى التحايل في التوفيق بين رغبتها الباطنة وبين الواقع المحتوم . . فهي تحب « ناهدة » . . إذن فلتوجه نظر ابنها الى ناهدة . . الى ناهدة بالذات . . والحالة حالة تقمص . والأم لا تحب جانين، لأنها لم تر جانين حتى يمكن ان تحبها وهي لهذا لن تتقمص شخصية جانين . وزواج الإبن بناهدة طريقة من طرق التعويض والاشباع . . وفكرة تقمص الأم لناهدة ليست فكرة غير معقولة . . وليست تعسفية .

وفي مكنتنا بعد هذا أن نضع تفسيراً لتعلق الابن بالأم في قصتنا على أساس النرجسية دون تعسف أو إقحام . . ولكن بقي شيء يجب أن يقال حول كلام الصديق أحمد كمال زكي عن عقدة أوديب . إن عقدة أوديب تحول دون توفيق المصاب بهافي ان ينشيء مع المرأة علاقة غرامية ناضجة . . إذ الشرط ان يتخلص الشخص أولاً من شبح الأم . لذا لم ينجح « ليوناردو دافنشي » في أن يدخل في علاقة مع امرأة لأن العقدة لم تحل أبداً فانحرف كما هو معروف إلى الجنسية المثلية التي تصرخ من خلال روائعه الفنية. عقدة أوديب إذن حائل ضخم يحول دون التوفيق في أية علاقة غرامية . وإنما يكون النجاح بعد ما تحل العقدة وقبل هذا يكون من المستحيل وجود علاقة بين المصاب بها والمرأة . والاستاذ أحمد كمال زكي يقول إن عقدة أوديب حلت عندما واجه البطل أمه عند عودته من باريس . ولكنه ينسى أن البطل قد نجح نجاحاً تاماً قبل ذلك في أن ينشيء علاقته الناضجة بجانين مما كان يبدو مستحيلاً لو كان مصاباً بعقدة أوديب . . فالشرط ان تحل العقدة أولاً . . . هذا بينما لا تحول النرجسية – كما بينا – دون نجاح المصاب بهافي علاقاته مع المرأة . . .

وقبل كل شيء نحب ان نتذكر جيداً ان من لوازم النرجسية الميل الجارف إلى الاعلان عن الذات . . إلى عرضها وإظهارها ولفت الأنظار اليها . . ولنتذكر أيضاً أن الفراغ . . الوقت . . الخلو . . الد أعداء الطبيعة النرجسية، فالنرجسي في حاجة دائماً الى الحركة . . الى الانفعال، وهنا نتذكر لجوء بطلنا من هول الفراغ وقسوته إلى لعب الورق . . . فلنمض فيما انتويناه :

تبدأ القصة بصراخ الذات تنادي ذاتها . . إنها تصرخ وتمعن في الصراخ ولكنها لا تسمع رجعاً لندائها بينما تمخر الباخرة عباب البحر مبتعدة شطر باريس : « كان يستيقظ احياناً على نفسه ويعي هويته فيحاول ان يقوم ذاته في حساب الشخصية الفردية، ولكن يعجزه آخر الامر ان يرسم لنفسه صورة متميزة الأبعاد واضحة المعالم . . وكان إذا حاول في فترة وعيه تلك أن يضع نفسه في موضعها من حياة مجتمعه تفاقم شعوره بالتفاهة والفراغ : شيء لا قيمة له بل لا شيء » . . . وحين يتوسط البحر تغمره موجة من الخوف والرهبة والقلق فيخطر له ان يقول : « كنت مطمئناً في جوي ذلك الوادع » . . . فيجيئه الرد العنيف : « أي ساذج أنت ! أكنت تعي ما أنت حتى تشعر بالاطمئنان أو بالقلق ؟ » . . . أوه . . إنه سينطلق في القصة . . كما تنطلق السفينة في البحر . . باحثاً عن ذاته . . عن الجواب المنشود المرضي للسؤال : « ما انا ؟ » . . ومن هذا النبع ستتدفق افكاره ومشاعره وستصب في اتجاه واحد من السلوك . وقبل كل شيء علينا ان نؤكد ان تقرير الذات لا يقبل نوعاً ايا كان من ارغام، فالحرية شرط وحيد ليكون من الممكن أن يجد الانسان ذاته وتحت وقر الجبرية يفقد الانسان ذاته . . وهو في بحثه عن الذات عليه اولا ان يبحث عن الحرية . . عن المناخ الذي يستطيع ان يجد فيه اجابة صريحة مرضية على السؤال : « ما أنا ؟ » . . لهذا هرب بطلنا الى باريس لا من أجل الدكتوراه . . ولا العلم . . ولا الادب . . فهو على نصيب كبير من المزاج الفني . . والارغام عدو الفنان اللدود . وفي الشرق أكثر من نوع من إرغام . . هناك العرف والعادة والتقليد والسلطة . . ظلمات فوق ظلمات . . وهو لا يستطيع أن يعثر في هذه الظلمات على ذاته التي يحسها ضائعة . فحين يسود العرف والعادة والتقليد والسلطة تطرد الرتابة المملة وينمط الروتين المسئم فيلفع الحياة بالسكون والجمود والعفونة والموت . . إذن فليدع شئونه منذ وطيء باريس « تجري في أعنة المفاجأة » وليحطم « هذه القوانين الصارمة التي يحيط بها نفسه دون ما جدوى » . . وحين يلح رفيقاه في الخروج والسهر في باريس الليلة الاولى « يحس الانقباض » لقد كان يشعر شعور السجين الذي يلفظه باب الليمان بعد أعوام شاقة مريرة . . ويتطلع لأول مرة فلا حراس ولا أسوار ولا قيود . . فلا يستطيع أن يتصور ان بمكنته أن يسير بلا حراس ولا قيود فيتردد بين ان يخطو الخطوة الاولى وأن يظل في مكانه لا يريم . . ثم يدفعه رفيقاه دفعاً فيخطوها ثم لا يلبث ان ينطلق كطفل لا يهمه « أن تسقط الثلوج وتلطخ الاوحال (قدميه) ما دام اليوم يوم عيد » . . وكما يحتاج الإنسان إلى دليل في الظلام فانه يحتاج الى دليل يرشده في بداية عهده بالنور حتى تتكيف حدقتاه فيمكنه ان يبصر في وضوح « فلو انه كان وحده لقفل خارجاً قبل ان تخطو قدمه خطوة ثانية في المقهى » . . إنه هنا في حاجة الى صاحبيه ليستمد منهما الجرأة « على مقاومة الجو الجديد » . . ثم من الطبيعي أن يكون الشعور البادر هو الشعور بالاغتراب متمثلاً في « الحجاب الكثيف الذي ران على شفاههم » إذن فليغرقوا « صمتهم في البيرة . . في كئوس الانصاف الثلاثة » لكنهم لم يتكيفوا بعد مع الضوء الباهر المفاجيء، ولم يصلوا بعد الى مرحلة الابصار الواضح . . فليعودوا الى الفندق . . أجل انه لا يكفي ان تنال الحرية لتكون حراً . . يجب أولا ان تعتاد على ان تكون حراً . . أن تتكيف مع الحرية . « لا بد ان تخنق ذلك النهيب البليد الذي تتعثر به قدماك في كل خطوة كأنما أنت طفل في سنيه الاولى » . .

هذا الذي يبحث عن ذاته . . هذا المصاب بالنرجسية . . يحاسب نفسه اعسر الحساب . . فهو يحصي عليها كل بادرة ويحسب الحساب كل الحساب لما يراه الناس فيه وما يقوله الناس عنه . . وصاحبنا لا يكاد يسأل « زينه » عن اسمها الحقيقي وينفجر الجميع بالضحك حتى يشعر بالدم يحرق وجهه « أترام يهزأون بي ؟ ولكن ما الذي قلته ؟ أكان خيراً لي ان اظل على صمتي؟ ان أظل شاعراً أبكم ؟ » ماذا قال ؟ انه لم يقل شيئاً يستوجب الاستهزاء . . انما هو مجال للضحك والمرح يستوجب الضحك من كل شيء او على الاقل تكلف الضحك ، ولكنها النرجسية التي تؤول هذا الضحك مثل هذا التأويل المؤلم .

وحين يعمق الشعور بالذات . . يقترن هذا الشعور بتوهم الاضطهاد او بمعنى آخر توهم جحود الناس وتجاهلهم لهذا الذي يشعر عميقاً بذاته . انه يطلب الى الناس جميعاً ان يحبوه كما يحب هو ذاته وان يقدروه كما يقدر ذاته . . وان يمتلئوا بذاته اعجاباً وشغفاً واحتراماً وإجلالاً كما يمتلىء هو بذلك إزاءها . . وحين يصدمه الواقع – ولا بد من صدمه – يكون الرد هو توهم التجاهل والعداء العمدي والتآمر . . والجحود والاضطهاد . يقول « فرويد » في معرض كلامه عن النرجسية : « ان المريض الذي يحمله استعداد ابتدائي لديه على الاعتقاد بانه مضطهد لا يلبث ان يستخلص من هذا انه شخص على جانب كبير من الاهمية والعكس ايضاً صحيح، فالنرجسي يشعر بانه شخص على جانب كبير من الاهمية، وهو لهذا يشعر بانه مضطهد .

كان يجب ان يتوقع صاحبنا اللبناني ان فتيات الليل في باريس لا يعرفنه وانه لا يمكنه ان يملأ وجودهن في ليلة او في لقاء عابر « بالسوربريز بارتي » وبهذا كان يوفر على نفسه آلام « الخيبة » :« اني احب – يقصد يجب – ان اتنبأ بالامور لاعد لها عدتها وأتخيل كيف يمكن ان تجري . . بذلك وحده اتفادى الخيبة » ما كانت الخيبة لتكون لو لم يكن الافراط من التوقع . . فماذا كان يتوقع – هو صاحبنا اللبناني؟ كان يتوقع او كان يجب ان ترتمي « سيمون » او «هيلين» او «سوزان » او «جانيت» او « زينه » او كهن – اذا امكن – بين احضانه صائحات به : « انت فارس الاحلام المنتظر » هذا بالضبط . . وهذا وحده ما يرضي الطبيعة النرجسية . . فماذا وجد ؟ خمس فتيات لخمسة شبان (حسب نفسه) بينهم كاليتيم و (أحس نفسه) دخيلاً ثقيل الظل » . . وهكذا لم يكن الافراط في التوقع ليكون لو لم يكن صاحبنا نرجسياً . . ويستغرقه الشعور بالجحود والاهمال والتجاهل والاضطهاد يقترن بشعوره بان ذاته – كالمانيا – فوق الجميع . . أوه . . ليس اشد شغفاً بنفسك من نفسك !انها وحدها التي تحبك كما تريد . فيصرخ صامتاً : « سأعود الى غرفتي واظل وحدي. أريد ان اظل وحدي » ويستلقي على سريره فيطفو من باطنه هذا السؤال : « أتحسب انها هي التي ستقبل للبحث عنك ؟ أتظن انها هي التي ستدنو منك فتبتسم لك ثم تنعطف نحوك وتهمس في اذنك (انا التي تبحث عنها، تعال أحبني). يقصد ان تقول : « انت الذي ابحث عنك تعال احبك» ولكنه الآن لا يتيسر له من الجرأة مع نفسه ما يجعله يصوغ عباراتها في هذه الصيغة الصريحة . . فلماذا لم يكن منطقياً هنا مع طبيعته النرجسية ؟ انه هروب الذات من مواجهة ذاتها في الحالة الواعية ، ولكنه سيكون منطقياً مع طبيعته الى اقصى حد حين يصدر عن اللاوعي . . وها هو يفعل: « كان يتصور انهن كثيرات . . كثيرات هنا . . وانه (يكفيه) ان (يسير) في الطريق ليتهافتن (عليه) و(يحدثنه) حديث الهوى » أجل هكذا يكون منطقياً مع طبيعته . . انه لا يتهافت عليهن وانما يريدهن ان يتهافتن عليه . . وفرق بين التهافتين . . وما دمن لا يفعلن ما يريده منهن فهن اذاً جاحدات وآه لو عرفن اي إله هو ! . . اذن لخررن تحت قدميه ساجدات . . ويعي انه قد صارح نفسه بنرجسيته في غفلة من الرقيب فيحس بالخجل والندم وينهض من سريره «ثائر الاعصاب . . نقطة الماء . . نقطة الماء التي تسقط في المغسلة تثير حنقه بصوتها الرتيب » . . أفكانت نقطة الماء حقيقة سبب هذه الثورة ام ذلك الاعتراف الباطني الصادر من اللاوعي ؟ أليس نهوضه هذا هروباً من مواجهة نفسه ورغبة في شغل نفسه عن نفسه بشيء ؟ . .

« ينبغي لك ان تطلبها . أن تنشدها . . ان تسعى في اثرها . . انها هي . . هي في بيروت وباريس . . في جميع انحاء الدنيا » . . ولكن أكان يبحث عن المرأة حقيقة كما يظن هو وكما يظن كل من قرأ «الحي اللاتيني »او تعرض لها بالنقد ؟أمن اجل المرأة جاء الى باريس ؟ أكان يحمل على الشرق لان هذا لم يمنحه من الاجساد العارية « المتمددة على السرر » ما يطفىء تلك النار التي تلتهب من جسده كما يظن القراء والنقاد جميعاً . . ام ان هناك علة اخرى رئيسية هي الاساس النفسي لحملته تلك الشعواء على الشرق ؟ لا شك انه كان يريد ان يغرق في احضان المرأة . ولكن أهذا ما كان يريده حقيقة ؟ انه يعترف بان الشرق كان يسمح له باجساد قد تكون في « برودة الثلج » وقد يشعر معها « بالغربة الروحية » ولكنها اجساد على كل حال . . اما فيما يتعلق بشعوره ذاك من اجساد الشرق « بالاشمئزاز والغثيان » فنحن نكون امام اكتشاف هام اذا عرفنا انه قد شعر ايضاً بنفس الاشمئزاز والغثيان مع المرأة باريس . . ولم يكن ليفسد عليه لذته في باريس خوف او برودة . . ما دلالة هذا ؟ . . ان تلك الاكذوبة الكبرى – الروح – أبعد ما تكون عن قصدنا بهذا التساؤل . . انما نريد ان نخلص من تساؤلنا الى شيء آخر .

ففي الفصل السادس من القسم الاول (ص ٦٢ – ٦٤) نراه يشعر إزاء « ليليان » بنفس الشعور – الاشمئزاز والغثيان – فبعد ان قضى حاجته الجسدية كان لا يزال جائعاً الى شيء . . وافتقاره الى الشيء هو الذي خلع طابع السخف على حديث « ليليان » :« ذلك الحديث الذي سحره بالأمس » . . وحين أغلق الباب خلفها أرسل زفرة طويلة «كان يشعر بضيق لا يدرك له تعليلاً إلا انه غير راض عن نفسه » ما علة هذا الضيق ؟ ولماذا لم يرض عن نفسه لو كان ما يريده حقيقة هو الجسد العاري المتمدد على السرير ؟ ما كان له ان يرضى . . فهو إنما يريد شيئاً آخر . . أما ما هذا الشيء ؟ فتلك هي المسألة !! . ثم هو يشعر إزاء « مرغريت » بنفس الشعور – الاشمئزاز والغثيان – ففي الفصل الثامن ص ٧٨ نقرأ : « ألا تكفي هاتان التجربتان . . ليليان ومرغريت ؟ وحتى تلك الحاجة التي كانت تتأكل جسده ، أتراه قد بدأ يشبعها كما كان يتمنى ؟ أكان فيها غير رغام ؟ وحل ؟ مادة قذرة ؟ أي احساس أيقظته في نفسه هاتان المرأتان اللتان استسلمتا له منذ اللقاء الاول ؟ هل احس لاحداهما بأية عاطفة ؟ هل اهتز في قلبه لهما وتر ؟ ماذا ؟ ألمثل هذا إذن قدم الى هذه البلاد وغادر ذلك الوطن ؟ » كلا . . لم تكن علة حملته على الشرق ذلك الكبت ولا ذلك الحرمان ولا تلك القيود والتقاليد والسعي الحثيث إلى المرأة ولا الغثيان ولا برودة الثلج ولا الغرابة الروحية . . وهو لم يهرب من الشرق لأنه يريد أجساداً ولا أرواحاً . . وانما يريد . . يريد ماذا ؟ . .

لقد أحبها بعنف ما فيذلك شك . . هي جانين . . احبها وهو لا يزال في شرقه يصورها في حلمه ويعاشرها في خياله ويناجيها في وحدته . . أحبها – جانين – قبل أن يلتقي بها بأعوام طوال . . أحبها مثالا قبل أن يحبها وجوداً تحقق فيه المثال القبلي المنشود . . احبها منذ بعيد : صورة متخيلة لامرأة تحبه كما يحب هو نفسه . . وتراه كما يرى نفسه . . وتقدره كما يقدر نفسه . . وتفنى فيه . . وتلاشي وجودها في وجوده أو تضحي وجودها من أجل وجوده . . وتحبه بكل كيانها لانها تعرف ان عليها ان تحبه بكل كيانها . . إنها ليست امرأة . . بل مثال سابق في مخيلته ، عنه يصدر وبه يزن وعليه يقيس واليه ينسب . . ولكي يوجد هذا المثال الذهني يجب ان يتحقق في وجود مادي . . في امرأة . . وهو لا يبحث عن المرأة وإنما يبحث عن المرأة التي يتحقق فيها هذا المثال القبلي المنشود . . فلينحقق في أية أمرأة . . في الشرق او في الغرب فهي بعد المرأة المنشودة . . وليتحقق في امرأة ايا كانت جميلة أو قبيحة ! . . فهي المرأة المنشودة . . ولنكن « زينه » أو « سيمون » أو « هيلين »أو«سوزان» أو « جانيت » أو « جانين » فهي كائناً ما كان اسمها المرأة المأمولة التي ينشدها . . فهو كلما لمح امرأة أو تحدث الى امرأة تساءل في لهفة « اتراها هذه التي ابحث عنها؟ » قالها عن «زينة » وقالها عن « فتاة السينما» وقالها عن « ليليان » وقالها عن « جانين » في اللوحة الاولى من القسم الثاني قبل ان يتكشف له وجدانها عن حب . . انه إذن يريد امرأة معينة، امرأة تكون مطابقة لمثال سابق في ذهنه . . هذا المثال وحده هو الذي يرضي ويشبع الطبيعة النرجسية، مرة ثانية انه يريد امرأة تحبه لانها تعرف

– التتمة على الصفحة ٥٣ –

« نرجس » ... « في الحي اللاتيني »

تتمة المنشور على الصفحة ٣٠

إن عليها ان تحبه وإنه جدير بأن تفنى من اجله. إنه لا يبحث في الحقيقة عن تلك التي يحبها بل عن تلك التي يجب أن تحبه .. أجل يجب .. وهـذا النوع النرجسي من الحب لا يكون للاتصال الجسدي فيه الاعتبار الوحيد . وما دام لم يحصل حتى الآن على ضالته فلا بد ان يضيق بباريس كما ضاق بشرقه .. ويضيق بنساء باريس كما ضاق بنساء شرقه .. وكما هرب من شرقه نراه يهرب من باريس – مدينة النور – إلى الظلام .. إلى السينما . « ليس الا صحراء ، صحراء آلم من صحراء شرقـك » .. يجب إذن أن نسير في القصة، وحين نسمعه يتحدث إلى نفسه عن شياطين الشهوة التي تطل من جميع منافذ نفسه .. وعن رائحة المرأة المحببة .. وعن جوعه الشره اليها .. فيجب ألا نخدع عن القصد .. يجب أن نعلم أنه هو نفسه كان مخدوعاً او مخادعاً حين كان يظن أن هذا علة البحث عن المرأة ..

واللوحة الثالثة من القسم الاول تعطينا تصويراً دقيقاً لطبيعة بطلنا النرجسية. إنه يشعر دائماً بأنه جدير بأن يحب.. خليق بـأن يستلفت النظر ويسترعي الانتباه والاهتمام حتى ولو كان جالساً في السينما – في الظلام – .. هـذه الفتاة التي لا يعلم من أمرها شيئاً .. هذه الفتاة التي لا تعرفه .. تمنحه يدها – أو على الأصح يغتصب يدها – ويقبض عليها فتتململ قليلاً بـين أصابعه القوية ويضغطها ببعض القسوة « فاذا هي تتطامن وتستسلم للضمة القاسية » كل هذا يعتبره بطلنا النرجسي « دليلاً على أنها بدأت هي كذلك تميل (اليه) قليلاً » ولكن لماذا تميل اليه ؟ الجواب عنده .. الجواب الوحيد : لأنها يجب ان تميل اليه .. « يجب » ليس غير .. وهي بعد النرجسية التي توحي اليه بهذا الوحي : « عليك الآن ان تخرج . أن تمحي كـأمير الأحلام . خلفها في هذا الغموض اللذيذ تفكر بك طويلاً بعد ذهابك ».. إنه وحي النرجسية .. إنه شعور النرجس بالوجوب والجدارة والأهليـة والاستحقاق ثم هو يتوقع أن تفي بالوعد الذي أذعنت له إذعاناً في السينما وانها يجب ان تأتي .. ويطول انتظاره فيهبط عليه وحي النرجسية : « ما يدريني ؟ قد تكون هي الآن في منعطف قريب ترقبني منه» – كذا – ولا تأتي فيتساءل ثائراً : « لماذا ؟.. لماذا؟ انه لا يفهم السبب » .. ثم يتملكه توهم الاضطهاد : « لماذا تخدعه ؟ » .. ثم يتساءل : « اكانت شفقة » منها عليه أن تمنحه هذا الوعد بالمجيء ؟ وهنا يتوقف .. فجأة حانقاً ثائراً ... لا .. لست بحاجة الى شفقة أحد ... » ولنا هنا وقفة: لماذا استراح صاحبنا نسبياً لفكرة « الخدعة » التي صور بها وعد الفتاة له بالمجيء ولم يسترح لفكرة «الشفقة » ؟ لماذا توقف فجأة بهذا الحنق وهذه الثورة ؟؟ .. من الطبيعي أن يستريح النرجسي نسبياً لفكرة الجحود والاضطهاد تبريراً لتجاهل الغير له لأن توهم الاضطهاد ملازم للشعور المفرط بأهمية الذات .. ولكن لا يستريح النرجسي لتصور « الشفقة » وهو في ثورته على هذا التصور منطقي الى أبعد الحدود مع تركيبه النفسي .. كيف ؟؟.. من البديهي ان فكرة « الخدعة » لا تتضمن معنى الانتقاص بينما تتضمن فكرة الشفقة معنى الانتقاص! فكل إنسان قابل لأن يخدع ولا فرق في هذا بين غبي أو ذكي .. ولكن ليس كل انسان قابلاً لأن يشفق عليه .. لان يكون موضوعاً تنصب عليه شفقة الآخرين . فالواقع أن إشفاقنا على الناقصين نوع من انواع التعويض المعنوي عما بهم من نقص . إننا لا نشفق على القوي .. بل على الضعيف. ولا نشفق على السليم بل على المريض .. ولا نشفق على الكبير .. بل على الصغير . وهكذا يتضح لنا مدى ارتباط الشفقة بالنقص.. انها تستلزم وجود كائن ناقص أي أن النقص من لوازم القابلية لاستحقاق الشفقة .. إذن فالشفقة عند بطلنا معناها الإنتقاص .. ومم ؟ من ذاته تلك التي يشعر بأهميتها ... ويشعر نحوها بكل الاجلال والحب والتوله . وحين يعترف امام نفسه بأنه إنسان يستحق الشفقة فهذا اعتراف منه بأنه إنسان ناقص .. لهـذا توقف صاحبنا فجأة « إنني أقوى من الشفقة وإني لأهزأ بها . أنا إنسـان سوي أعيش بحرية وافعل ما اشاء . وأرفض قبل كل شيء أن أكون موضع شفقة أو رثاء . لست بحاجة الى أن يتصدق علي أحد بعاطفة » وهكذا يكون هذا الموقف دلالة قوية على الطبيعة النرجسية في التركيب النفسي لصاحبنا اللبناني .

وإذ يستريح إلى التبرير الوحيد الممكن الاحتمال نسبياً – الاضطهاد – يكون رد الفعل هو الرغبة في الانتقام من المرأة .. تلك الجاحدة : «إن قصاري ما ينبغي له ان يفعل هو ان يأخذها بين يديه فيعصرهـا ويعصرها ويمتص كل حلاوتها ثم يلفظها كما تلفظ النواة وسيرى بعد ذلك وسيشعر شعوراً لا تردد فيه بأنها هي المسكينة التي تستحق الشفقـة والعطف » .. فلنتذكر هذا جيداً .. وحين يقدر لبطلنا ان تحبه امرأة لن ينسى مرارة هذا الاضطهاد الطويل .. سيكون طاغية مستبداً . وسيحاول أن يجردها من إرادتها..وسيفني وجودها في وجوده.. بكلمة واحدة .. سيستهلكها، سينكل بها .. سيكون ذلك العنكبوت المخيف الذي يشل قوي فريسته التي يلقي بها سوء الحظ في شباكه .. وبعد أن يشبع جوعه الشره إلى تـأكيد الذات لن تكون له بعد هذا غاية .. ولا ضمير ، .. ولا اخلاق .. بـل سيسعى لأن يشبع على نطاق أوسع ذلك الجوع الذي لا يشبع .. نقصد نطاق القضية العربية.. والمجتمع العربي .. فكل القيم تنبع من ذاته.. لأجل ذاته ، وكل القيم ترتد الى ذاته .. وسيكون هذا هو فعله بجانين حـين يأتي دور جانين .

إننا لن ننتهي من هذا البحث لو تتبعنا جميع الشواهد ، فليس أمامنا إلا ان نخرج من طوايا القصة أشياء نضعها على المائدة أمام عيني القارىء وعليه هو أن يقول لنا ماذا تكون العلة إن لم تكن النرجسية في أعمق اغوارها:

« ووهنت نفسه حين قرأ في رسالة امه وصف اجتماع للاسرة كان هو فيه مدار الحديث . اي مكان له في قلوب ذويه! وما احوجه الى ان يستشعر هنا مثل هذا الحب والتعلق والاخلاص . لقد كان هنـاك يشرف على حدود عالمه فيعي قيمته . اما هنا فعالم ضائع الحدود بعيد المسافات يحس انه لا يعدو ان يكون فيه اكثر من ورقة جافة من هذه الاوراق الكثيرة التي تسقطها ريح الخريف عن الشجر ».

« وابصر صديقه يتأبط ذراع ليليان ويمضي بها الى فندقه. وحـين شعر بأنه وحيد في الطريق حاول طويلاً ان يسكت صوت نفسه وهي تتساءل : أتراني وقعت من نفسها موقع الرضى ام انها ..» ولم يتم صوت نفسه العبارة وأشفق من الجواب فجهد في ان يغير الحديث بالتفكير في موضوع آخر ».

« وسقط كل الخوف والهيبة والتردد والاضطراب .. أكان حقـاً بحاجة الى أن تطلب منه سيكارة او ان تقترح عليه دخول المقهى حتى يشعر بشخصه . حتى يشعر بانه انسان حي .. انسان حر ؟» .. وطوال الطريق جعل يتكلم . لم يكن يريد ان يترك لهـا مجال الحكم عليه أياً كان هذا الحكم . وقد عول على ان يمسك زمام المبادرة ما دامت قد سلمته طرفه عن رضى؟» فلماذا كان يريد ألا يترك لها مجال الحكم عليه ؟ لان الحكم تقويم،

.. وهو ينظر الى حكم الغير عليه نظرة الشك والخوف والريبة والتوجس فهناك حكم واحد يرضي الطبيعة النرجسية هو الحكم الذي يصدره النرجس على نفسه .. اما وهو لا يعتقد ان احداً سيمنحه هـذا الحكم المرضي بهذه السهولة فهو يتوجس خيفة من كل حكم .. فالنرجسي ينظر الى « الآخر » نظرة الريبة والشك والحذر ويجب ان يطابق حكم « الآخر » حكم الذات على ذاتها وهذا هو الشرط الوحيد لرضاء النرجسي عن احكام الغير ..

« وشق عليه ان يجرح الصديق الذي عرفه الى هذه المرأة – ليليان – وان تجرحه هذه المرأة بالذات . ومـا يدريه اذن ان تستهزىء به هو بالذات امام اول رجل تلقاه بعد ان تغادره ؟ »هذا هو السر في انه لامس شفتيها « ملامسة خاطفة وابتسم لها وهي تهبط السلم بسمات مغتصبة » وهذه هي علة عدم رضاه عن نفسه.. وهذا تعليل الضيق الذي لم يدرك له تعليلاً.. ثم ها هو يؤكد لنا او على الاصح يعترف اخيراً بانه لم يفر من الشرق ولم يحمل على الشرق حملته بسبب من كبت او حرمان .. ولم يهرب الى باريس من اجل النساء العاريات... والعطاء الذي يبذرنه بلا حساب .. فلو كانت الازمة ازمة كبت وحرمان لانتهى الصراع بعد تجربتي«ليليان» و«مرغريت» .. لكنه مر بهاتين التجربتين دون ان يتقدم خطوة واحدة نحو الحل .. حل الازمة .. بل هو يعود يسأل نفسه :

« ألست ترى الحرمان الذي عشت منهن فيه – في الشرق – خيراً من هذا العطاء الذي تعيش فيه من نساء باريس ؟ ».. امـا تحسره هذا على الحرمان فساوق بطبيعته النرجسية الى اقصى حد، تلك الطبيعة التي لم تجد في العطاء الا جوعاً وتعطشاً .. حيث كانت في الحرمان تستطيع ان تلجأ الى الخيال والتحايل وانتحال العلل والتبرير المرضي فتفسر ظواهر « ذلك الحب الذي لا يصرح عنه ولا يتحدث فيه » هنالك في شرقه .. تفسيراً يرضيها. فاذا كانت «ناهدة» لا تحدثه الا حديث الشعر فانه يشعر «انها تحب شعره وانها تحبه هو نفسه قليلاً عبر شعره . بل لعلهـا تغلف عاطفتها نحو شخصه بهذا الغلاف من الاعجاب بادبه ».. إذن فقد كان ثمة مجـال في الشرق .. في الحرمان .. في الحب الذي لا يصرح عنه .. للاحتمال المريح نسبياً .. اما هنا في باريس .. في العطاء .. في الحب المكشوف .. فلا مجـال لاحتمال وانما هو القطع واليقين المكشوف ..

وفي اللوحة الاولى من القسم الثاني تقف امـام اقوى دلالة على الطبيعة النرجسية الكامنة في اغوار بطلنا.. نقصد ذلك المونولوج في ص١٢١ الذي حدث به نفسه في ليلتين متواليتين بعد ان عرف جانين بقليل .. وهنا نحيل القارىء الى كلامنا عن جانين الواقع وجانين المثال .. وبعد هذا يكون في مكنتنا ان نقسم حديث البطل عن جانين في هذا المونولوج ص ١٢١ الى قسمين :

قسم اول يتحدث عن « جانين المثال » تلك التي احبها قبل ان يلتقي بها باعوام طوال .. والقسم الثاني عن «جانين الواقع » تلك الفرنسية الـتي تعرف اليها منذ قريب جداً .. وسنجـد انه يتكلم في الواقع عن« جانينين» لا عن واحدة..فهو في القسم الاول من المونولوج يناجي تلك الصورة .. تلك النموذج تلك المثـال الذي يبحث عنه منذ بعيد .. تلك التي « تبحث عنها روحك بين ركام من الصور الباهتة الحائلة » ...

تلك التي ظلت ولا تزال حتى ص ١٢١ غائبة عن وجوده . ولم يكن حديثه حتى ص ١٢١ عن « جانين الواقع » التي ملأت وجوده الفارغ بل عن «جانين المثال » التي ستملأ «بعد الان هذا الوجدد الفارغ الذي يبحث ابداً عن معنى ذاته » حتى يتحقق المثال في واقع .. في وجود.. في امرأة. وحتى اللوحة الاولى من القسم الثاني من القصة لم تكن « جانين المثال » قد وجدت بعد في واقع ولكن كانت «جانين الواقع » قد ظهرت على مسرح القصة وان كانت هذه ستندمج في تلك عما قريب في اللوحات التالية . والى ان يسأل (هو) نفسه : هل تنوي ان تتخـذ من شخص جانين مظهراً تتحلل فيه من اوزارك وتنفض عنده آثامك ؟ » الى هنـا يكون قد فرغ من الحديث عن المثال .. ثم يدلف الى الحديث عن الواقع فاذا هو حديث مخالف في الروح لحديثه عن تلك المثال .. فهو يتحدث هناك حديث الحب والتعلق ... اما هنا – عن الواقع – فهو لم يحب جـانين الواقع بعد فيقول : « أتدري حقاً لماذا تحبهـا ان كنت تحبها »؟ ولكنه سيحبها حبه لتلك المثال يوم تتوحد جانين المثال بجانين الواقع .. يوم يمتص الواقع المثال.

وقد بدا يحب جانين الواقع.. بل الاصح انه بدأ يعلق عليها الآمال .. وبدأ رجاؤه يقوى في ان تكون هذه هي تلك التي يبحث عنها.. متى ؟.. ولماذا ؟ لانها اعطته الاشارة التي لا يخطئها التركيب النرجسي «فلقد اشعرته انها وثقت به – ليلة روت له مأساتها – وتعلم انه غدا يشاركها بعض حياتها وهو من اجل هذا استعـاد به ض ثقته بنفسه » « وحين فرغ من ترجمة القصيدة – الحرمان – . رآها تنهض اليه على هينة فتدنو منه وتضع كفيها على كتفيه وتجعل عينيها في عينيه وتهمس : « ما اروعك يا شاعري ! » ها هو الواقع يصعد بجناحي نسر الى المثال.. او ها هو المثال يهبط منقضاً على الواقع.وها هو بطلنا يسرع الى حيث يلتقي بذاته تلك التي اضناه طلبها ونشدانها.. والتصق« بشفتي جانين.. كان روحاً تعانق روحاً » او على الاصح كانت ذاتاً تعانق ذاتها.. تجد ذاتها، تلتقي بذاتها . واذ تسأله جانين عن عهد الصداقة كان يستطيع ان يصرخ مع أرشيدس : « وجدتها » ولكنه قال لها بالمعنى لا بالحرف .. قال : « أحبك يا جانين ! »

ولكن بقيت صورة « هنري » يرى فيه غريماً يقتسم معـه جانين وإن كان في ذهنها مجرد ذكرى .. وحين يسألها : « اعلم أية ذكرى هي .. ولكن هذا الشخص الماثل امامك ألا يستحق أية .... » كان يصـدر صدوراً امياً عن الطبيعة النرجسية . فهو يعلم سلفاً بالجواب .. يعلم أية مكانة له في نفسها وقلبها .. يعلم أنه يحتل كيانها كله . ويسأل لا لأنه لا يعرف

صدر حديثاً :

كانديدا

لبرنارد شو

وهي الكتاب الرابع من سلسلة روائع المسرح العالمي ، وقد نقلتها الى العربية

الآنسة سميرة عزام

الثمن ليرة لبنانية دار العلم للملايين

بل لأنه يستزيد .. كعادة الريفي عندنا إذ تتحقق له أمنية عزيزة فيطلب من آخر أن يخزه بدبوس كي يصدق أنه ليس بالحالم وهو بعد يعلم أنه ليس بالحالم ولكنه فقط يريد أن يستزيد .. أن يتلذذ .. إذن فقد وجد بطلنا ذاته .. أخيراً .. وها هو يشعر : « بالفخر والاعتزاز إذ يدخل قاعة السوربون الكبرى وجانين الى جانبه .. ولقد رأى العيون تلتفت اليهما في نهم لا يتنزه عن الغيرة » إنه هنا الميل إلى العرض والاعلان عن الذات . ويدل على هذه الازمة ويؤكدها تصرفه ذاك في مطعم « لوي غران » حيث عرف أصدقاءه الى جانين .. فهو « يهم بأن يدني شفتيه من خدها » كأنما يريد أن يؤكد لرفاقه أن هذه ملكه .. وكأنه يقول لهم « انظروا .. انظروا .. هأنذا أستطيع وحدي أن أفعل هذا معها .. إنها ملكي .. أنظروا .. »

يقول الفوضوي « ماكس ستيرنر » : «أنا أمتلك ذاتي حقاً من اللحظة التي أعي فيها ذاتي وأنقطع عن البحث عن هذه الذات ».. وماكس ستيرنر لا يعرف من الحب إلا ذلك « الحب الأناني » : الذي يرى الكائن المحبوب شيئاً خلق لإرضاء الذات الأنانية و(غذاء لأهواء الأنا) » .. وشبيه بهذا الكلام قول « فرويد » – في معرض حديثه عن النرجسية – « يجتذب الموضوع الجنسي إليه في العادة جزءاً من نرجسية الأنا ومن ثم ينشأ مايسمى بالإغراق في تقدير القيمة الجنسية للموضوع . فاذا اضيفت إلى هذا غريزة موجهة الى الموضوع ومشتقة من أنانية المحب اصبح الموضوع الجنسي على درجة بالغة من القوة والسمو ونستطيع ان نقول انه امتص الأنا بكليته » أي أصبح هناك توحد أو اندماج بين الأنا والموضوع .

إننا نقاوم هنا رغبة عنيفة جارفة تحاول ان ترغمنا على أن نعرض في هذا البحث للربط بين « النرجسية والفوضوية والوجودية » على اساس نفسي .. لأن عبادة الذات هي العامل المشترك بين الثلاثة.. ولكننا لن نفعل وقد نفعل في بحث مستقل . ولكن لا يفوتنا هنا أن نذكر ان صاحبنا اللبناني شاب يعتنق أفكار « سارتر »وليس من قبيل المصادفة قوله :«..أي عمق ونفاذ هذا الذي تكشف عنه نظرات سارتر في المسئولية والحرية . لسوف يذكره طويلاً فيما بعد . سيذكر حركات سارتر هذا في عينيه وقسماته ويديه يوم يعيش أشهراً طوالاً مع « ماتيو » بطل « دروب الحرية ».. ونحب أن نخطو خطوات سريعة الى نهاية هذا البحث وللقارىء حرية المراجعة والبحث البطيء إن لم تكفه اللمحة الخاطفة.. : ها هي جانين قد أشعرت صاحبنا بذاته وأشبعت غروره .. وعالجت في كيانه النفسي ذلك الجرح العميق .. الشعور بالنقص .. « لا .. لم يكن جميلاً وقد كان واثقاً من ذلك » وقد أصبح : « يحسب أن سمرته تكسب وجهه طابعاً من الرجولة لا تقابله المرأة باللامبالاة . وإن الغرور ليدغدغه إذ يذكر أن الشقرة لا تتنافر مع السمرة » .. وأخيراً .. واجهته جانين بالسؤال الكبير « ماذا بعد ؟» ... ويثيره هذا السؤال فيقول: « ولكن لماذا تطرحه هذا السؤال؟ أهي تحبني حقاً ؟ أو ما تدرك أن إثارة هذا الأمر تنغص علي هنائي !» ولنا هنا وقفة لن تطول : إنها تطلب منه الزواج . غاية المرأة .. فلماذا يقابل هذا الطلب الطبيعي بمثل هذه الثورة ؟ ولماذا يكون طلبها هذا مدعاة للشك في حبها له فيتساءل: أهي تحبني حقاً ؟.. اننا نحيل القارىء على فكرة الذاتيين عن الزواج وبخاصة « شوبنهور » و « بيرون » و « نيتشه »و« شبنجلر » ليعلم ماذا تكون فكرة النرجس عن الزواج ... إنها فكرة قوامها البغض والكراهية والنفور والإنكار والاشمئزاز لأن مقتضاها أن يكون الرجل مجرد وسيلة لإنجاب الأطفال .. مجرد أداة .. مجرد قنطرة تعبرها المرأة الى غايتها الطبيعية .. حفظ النوع .. لا غاية تعيش المرأة من أجلها . والذاتي او النرجسي يقبل كل شيء إلا أن يكون مجرد وسيلة او قنطرة أو أداة . إن ذاته غاية الغايات . وحسب المرأة أن تحبه وأن تفنى في حبه فهذا أيضاً يجب أن يكون لها غاية الغايات . فان كانت جانين تحبه حقيقة فعليها – في رأيه – أن تقنع بحبها له،عليها أن تعيش من أجل غاية واحدة هي حبها له .. فليس بعد هذا شيء يجوز لها في شرع النرجسية أن تنشده .. ماذا بعد ؟ يا للكارثة .. وماذا يمكن أن يكون بعد هذا ؟.. لا شيء.. لا شيء ... وتقترن فكرة الزواج لدى الذاتيين على العموم وخاصة لدى النرجسيين منهم بفكرة الامتلاك ، والاستحواذ كما تقترن لديهم – لدى النرجسيين – بالبرودة والضجر والروتين والرتابة .. الد اعداء التركيب النرجسي الذي ينزع دائماً إلى الحركة والنشاط والتجديد والانفعال والاستثارة.

أما عن مصير جانين فهو المصير المحتوم لفريسة المنكبوت النرجس.. مصداق هذا قولها : « ذلك كان شأني دائماً : ضعيفة غاية الضعف في حبك. أما أنت عزتك هذه التي تحبب الى الشرق وتبغضه في آن واحد » وقوله : « حق ما تقول وليس الى انكاره من سبيل. لقد كانت هي دائماً كذلك وذكر ما قالته له منذ ايام : « لقد طبعتني بطابعك وسأظل ابداً اسيرة قيودك . إن مصيري تقرر منذ رأيتك . لم تبق لي إرادة .. » وهكذا استهلكها .. صاحبنا المنكبوت .

وختام الدلالات على نرجسية البطل حديثه التالي إلى جانين :

« – مسكينة هذه الأسبانية ! كان في عينيها الأنس بي والرغبة في اللقاء . وقد واعدتها بالفعل مساء اليوم التالي – ونظر الى ساعته ثم ضحك – أي الآن .. أعتقد انها منذ ربع ساعة تنتظر قدومي إلى محطة « الأوديون » – ثم فاجأ نفسه يتحدث هذا الحديث الثقيل الذي يرشح منه الغرور »

– ولماذا يخلف «دون جوان » وعده : ما رأيه في ان اذهب الان لافسح له المجال ؟

(فالقى رأسه على صدرها الحار وهو يتمتم) :

– أتحسب جانين ان « دون جوان » يؤثر عليها احداً ؟ تلك كانت تسلية عابرة وان جانين لتعلم انها اجل حب في حياتي .. »

تخيلوا مبلغ ألم جانين وهي تسمع منه هذا الحديث .. ثم وهي تقول له: « ولماذا يخلف « دون جوان » وعده ؟ » وكونوا على يقين من انه كان يتعمد ان يعذبها ويتلذذ بهذا التعذيب لها ..

اخيراً.. نظن اننا قد اعطينا القارىء ما يكفي، وعليه هو ان يراجع القصة ليرى ما اذا كانت جزئية واحدة تفلت من احكام هذا التشريح . ولن نمضي في هذا البحث الى اكثر مما ذهبنا .. لاننا قد قلنا سابقاً بتغلب عنصر الاختراع والصيغة في القسم الثالث من القصة .

وآخراً .. لقد كان الدكتور سهيل ادريس رائداً يرود الطريق الوعرة نحو قصص عربي يقوم على التحليل النفسي الدقيق الامين الواعي الذي لا تنقصه الشجاعة والجرأة والصدق .. وهذا ما كنا نحتاج ونفتقر اليه في ادبنا العربي المعاصر بعامة ..

القاهرة

نجيب سرور

من رابطة (الألم) المشترك